ياعيل ليرير *

تجربةُ "الأندلس":
هل يمكن إسقاط جدار الفصل الثقافي؟ **

لو أن زائرة من كوكب آخر أتت إلى هنا ونظرت إلى الواقع القائم في المنطقة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط من دون عدسات التشويه المعتادة، لرأت أن نحو نصف السكان في فلسطين/إسرائيل ـ الأرض الممتدة من النهر إلى البحر، والتي خضعت لحكم واحد طوال أكثر من ٤٠ عاماً ـ هم من العرب الفلسطينيين، وأن العربية لغتهم الأم، شأنهم في ذلك شأن نصف السكان اليهود الإسرائيليين تقريباً. ولو ميّزت زائرتنا ـ كما يفعل المكتب المركزي للإحصاء الإسرائيلي، والجامعات ووسائل الإعلام الإسرائيلية ـ بين المواطنين الإسرائيليين والفلسطينيين الخاضعين للاحتلال، لوجدت أن "المواطنين الإسرائيليين"، في أغلبيتهم، هم في الأصل من الناطقين بالعربية (ومن قارئيها وكاتبيها إلى حد بعيد). ومن المرجح أن تلاحظ زائرتنا أن إسرائيل تقع في قلب العالم العربي، وأن البلاد كلها التي تحيط بها هي بلاد عربية.

وقد ترغب زائرتنا في أن تتعرف إلى الثقافة المحلية، فتدخل مكتبات قريبة حيث تتوقع أن تجد كتباً باللغتين العبرية والعربية، وهما لغتا دولة إسرائيل الرسميتان، لكنها، للأسف، لن تجد إلاّ الكتب العبرية في مكتبة أولى، وبعض الكتب الإنجليزية في مكتبة ثانية، في حين تجد مكتبة ثالثة مخصصة للأدب الروسي. "ما من عرب هنا! هذه تل أبيب يا عزيزتي"، يقول لها الجميع. وربما تصاب الضيفة بالدهشة بعض الشيء، وهي التي سبق أن زارت باريس وروما ولندن وموسكو ونيروبي وجوهانسبرج وبوينس أيرس: "مدينة بلا عرب؟ بلا لغة عربية؟ هنا؟ في قلب الشرق الأوسط؟"

وربما تلتقي ضيفتنا بعد ذلك صديقة، هي أيضاً من كوكب آخر، لكنها، بخلاف زائرتنا، لا تنظر إلى الواقع، وإنما إلى تمثيلاته، فتشاهد البرامج التي تُعنى بالشؤون الراهنة، وكذلك نشرات الأخبار المسائية على شاشة التلفزيون، وتقرأ الصحف، وخصوصاً "هآرتس" "اليومية الليبرالية"، وتذهب إلى المسرح والأوبرا، وتحضر اجتماعات أعضاء هيئة التدريس في الجامعة، ومثل زائرتنا، تنقب في المكتبات. "ما المدهش في الأمر؟ هذا بلد أوروبي في النهاية!" تقول، معاتبة زائرتنا. ولأن هذه الصديقة لا تلتقي بصورة عامة إلاّ الرجال الأشكناز العلمانيين متوسطي الأعمار، فإن هؤلاء عملياً هم الوحيدون الذين تراهم وتسمعهم وتقرأ لهم: رفوف المكتبات تعج بكتبهم، كما تعج بكتب نظرائهم الأميركيين والفرنسيين والألمان والإسبان. ولا تفلح زائرتنا في إقناع صديقتها بأن الرجال الأشكناز

(*) كاتبة وناشرة إسرائيلية، وناشطة في مجال معاداة الاحتلال.

(**) **ترجمة**: ثائر ديب.

العلمانيين لا يشكّلون إلاّ أقل من ١٠٪ من سكان البلد (وأقل من ١٥٪ من مواطني الدولة)، ولا تفلح أيضاً في جعلها تصدق أن إسرائيل ليست في أوروبا.

في هذا الواقع، وتمثيلاته، وُلِدَت "دار الأندلس للنشر". غير أني حين أطلقتُ داراً للنشر متخصصة بترجمة الأدب العربي إلى العبرية، كان لديّ انطباع بأن هذا الواقع سيتغير. كان ذلك في أواخر تسعينيات القرن العشرين، عشية الانتفاضة الثانية. وعلى الرغم من انتقادي ما دُعي "عملية السلام" التي أعقبت اتفاق أوسلو، فإني لم أكن أعي الوعي كله انتقادي هذا.

لقد خشي مثقفون فلسطينيون بارزون ـ مثل الراحل إدوارد سعيد، وعزمي بشارة، وسواهما ـ من أن تؤدي عملية أوسلو إلى قيام بانتوستانات فلسطينية تعزز الفصل العنصري الإسرائيلي. وعلى الرغم من أن سياسة "الإغلاق" الإسرائيلية كانت بدأت منذ أوائل تسعينيات القرن العشرين (منذرة بـ "اختفاء" العرب من تل أبيب)، فإن أكثر معماريي هذه الجدران جموحاً في الخيال لم يتخيلوا جداراً أسمنتياً ارتفاعه ثمانية أمتار يعزل العرب عن اليهود، واليهود عن العرب. لقد تصور كثيرون من منتقدي أوسلو، ومنهم أنا نفسي، أن "الإغلاق" مجرد نكسة عابرة في إطار يبتغي التوصل إلى تسوية تاريخية و"سلام". وعلى الرغم من تجريد كلمة السلام من أي معنى، كالعدالة والمساواة، فقد كان يبدو أن العملية لا تزال تشير إلى التقارب والتفاهم والعيش معاً وليس كل على حدة.

في "أعوام أوسلو السعيدة"، وإلى جانب عدم التوقف عن بناء مستوطنات جديدة وتعبيد طرق التفافية خاصة باليهود وحدهم، كان ثمة قدر وفير من النشاط اليهودي ـ العربي المشترك، جرى كثير منه برعاية برامج تهدف إلى تعزيز الحوار بين الشعبين، وبتمويل أوروبي وأميركي وياباني. وبدا، في الوقت ذاته، أن الأيديولوجيا الصهيونية ـ الأشكنازية السائدة، التي تتصور إسرائيل معقلاً أوروبياً "من معاقل الغرب في الشرق"، بدأت تضعف، إذ بات من الممكن الإحساس بالحضور العام الواضح والمسموع لجماعتين كانتا أُضعفتا وهُمِّشتا تاريخياً، هما: الفلسطينيون مواطنو إسرائيل، واليهود الإسرائيليون "الشرقيون" الذين هاجروا من شمال إفريقيا والشرق الأوسط ("اليهود ـ العرب"، أو "المزراحيم")، كما أن النخبة الإسرائيلية راحت تستمع إلى الموسيقى العربية و"الشرقية" معاً. وفي حين لم يكن المرء في ثمانينيات القرن العشرين يجد أم كلثوم إلاّ في يافا وغيتوات اليهود العراقيين في "حي هاتكفا" ورامات غان، فإنه بات في إمكانه، في تسعينيات القرن العشرين، أن يشتري أغانيها على أقراص مدمجة من تسجيلات البرج، ويستمع إلى "أنت عمري" في كل ملهى ليلي يحترم نفسه في تل أبيب.

جاء في "إعلان نوايا" دار "الأندلس"، الذي كُتب في سنة ١٩٩٩ ما يلي:

> *الأندلس هي دار نشر جديدة متخصصة في ترجمة الأدب والنثر العربيين إلى العبرية.*
> *والأندلس، حيث كان "العصر الذهبي" للفكر الإسلامي واليهودي، هي أيضاً حقبة غذّت خلالها الثقافتان اليهودية والعربية واحدتهما الأُخرى وأخصبتها؛ وعهدٌ اشتهر بإنتاجه الأدبي والفكري الذي قدمه بعض من أعظم الفلاسفة وعلماء الدين والشعراء المسلمين واليهود؛ وفترةٌ كانت الترجمات تجري فيها من العربية إلى العبرية وبالعكس.*
> *وعلى الرغم من موقع إسرائيل في قلب العالم العربي، فإن الإسرائيليين الذين يقرأون العبرية يبقون، في معظمهم، بعيداً عن الثقافة العربية عموماً، وعن الأدب والفكر العربيين بوجه خاص. ذلك أن الترجمات الحالية ليست بالكافية كمّاً ونوعاً، خاصة إذا ما قورنت بوفرة الأعمال المترجمة إلى اللغة العبرية من اللغات الأوروبية؛ فمنذ ثلاثينيات القرن العشرين إلى الآن لم تتجاوز العناوين العربية المترجمة إلى العبرية ٤٠ عنواناً.*
> *إن هدفنا هو إنشاء دار نشر مستقلة ناجحة تقدم في كل عام دزينة من الكتب المترجمة تمثل*

تشكيلة متنوعة من الأساليب: الأدب القديم والحديث، البحث الأكاديمي والصحافي، الشعر، المسرح، الهجاء، النظرية والنقد.
هدفنا هو أن تثير الأندلس الاهتمام بالعالم العربي، وتيسّر التعرف عليه، من خلال أدبه ونثره. وبفعلنا ذلك، نأمل أن نكون بمثابة حافز لدورِ نشرٍ أخرى كي تشارك في هذا المشروع الضخم المتمثل بإتاحة منشورات اللغة العربية لجمهور قراء العبرية الإسرائيليين.

تمثلت خطوتنا الأولى في اختيار المترجمين والمحررين، وقد ساعدنا الفنان الفلسطيني شريف واكد في اختيار العناوين الأولى للنشر، فضلاً عن تصميمه وإخراجه كتبنا كافة. ولم نترك أحداً لديه الأهلية إلاّ استشرناه، فقوبل طلبنا النصيحة بعطاء سخي متحمس. وتألفت قائمة منشوراتنا الأولى من ١٠ روايات من شأنها أن تقدم للقارئ المبتدئ "عيّنة" جيدة من الأدب العربي المعاصر (لكتّاب ذكور وإناث من أصول متعددة، وأجيال متنوعة، وعدة أساليب كتابية).

غير أن خططنا تغيرت عندما أعلن وزير التربية يوسي سريد في آذار/مارس ٢٠٠٠ أنه سيُدخل قصيدتين للشاعر الوطني الفلسطيني محمود درويش في منهاج المدارس الثانوية. وهاتان القصيدتان "الشعريتان لا السياسيتان"، على حد تعبير سريد، كانتا ستدرجان في قائمة طويلة من القصائد يمكن أن يختارها المعلمون ويقرروها لطلابهم، وليس، لا سمح الله، في قائمة القراءة الإلزامية. ولم تَحُل هذه الحقيقة الأخيرة دون أن يثير قرار سريد ضرباً من الهستيريا العامة، فلم يبق خبير سياسي أو باحث أكاديمي أو عضو كنيست إلاّ أدلى بدلوه في هذا الشأن. أمّا رئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك إيهود بَراك فقال: "المجتمع الإسرائيلي ليس مهيّئاً لدراسة درويش." وتبعته البروفسورة زوهار شافيط، التي كانت آنذاك مستشارة وزير الثقافة متان فيلنائي، فقالت: "قبل أن يتعرف الأطفال الإسرائيليون إلى محمود درويش وسامي ميخائيل (الروائي اليهودي العراقي البارز)، وهو الأمر الذي يجب أن يتم من دون شك، لا بد لهم أولاً من معرفة التراث الأدبي الإسرائيلي، بياليك وعجنون وعميحاي." جعجعة بلا طحن، وما من ديوان واحد لدرويش بين الكتب العبرية.

أول مترجم توجهتُ إليه كان المرحوم محمد حمزة غنايم، الذي أمضى حياته في الترجمة من العربية إلى العبرية وبالعكس. وقد كرس نفسه لمشروع دار "الأندلس" للنشر وترجم ثلاثة من دواوين درويش: "لماذا تركت الحصان وحيداً"؛ "حالة حصار"؛ "جدارية"؛ فضلاً عن رواية حنان الشيخ "حكاية زهرة".

حين اندلعت "هستيريا" درويش في إسرائيل، اقترح غنايم أن ننشر ديوان "لماذا تركت الحصان وحيداً"، الذي كان ترجمه، وبذلك، لم تكن أولى منشوراتنا رواية، وإنما ديوان شعر. ولم تزدنا "الهستيريا" إلاّ قناعة بأن الجمهور الذي يقرأ بالعبرية بحاجة إلى أن يتعرف إلى الأدب العربي. وفي غضون أسابيع كانت دار النشر قد سُمِّيَت، ووُضع تصوّر لتصاميمها، وعُرض كتابنا الأول على رفوف المكتبات.

غير أن دهشتنا كانت كبيرة حين لم يُثِر نشر الكتاب أي اهتمام يذكر، وبات من الواضح أن ثمة استسهالاً للكلام على درويش من دون معرفته. وعلى الرغم من الهستيريا (وما يرافقها من دعاية مجانية) فإن ديوان: "لماذا تركت الحصان وحيداً" لم يبع [كثيراً من النسخ] كما كان متوقعاً، مع أنه يبقى من أكثر كتبنا مبيعاً، إذ إنه باع خلال العقد الماضي نحو ٢٠٠٠ نسخة، وهذا أمر عظيم في إسرائيل، لأن الشعر لا يحظى بالشعبية، أكان مترجماً أم باللغة الأصلية. وأغلبية قصائد الديوان تُعنى بنكبة ١٩٤٨، والحياة التي سبقتها. وقد تبيّن أن لهذا الموضوع قراءه الذين كان بينهم رئيس الحكومة السابق أريئيل شارون نفسه، ففي مقابلة أجرتها معه صحيفة "معاريف" في نيسان/أبريل ٢٠٠٥، سُئل:

■ **هل أنهيت قراءة "فونتانيل" لمئير شاليف؟**

□ بقيت لي صفحات قليلة. في البداية، عانيت

مع هذا الكتاب، غير أني حين قطعت فيه شوطاً، اكتشفت أنه كتاب استثنائي.

■ **لكن مئير شاليف ليس من المعجبين بك.**

□ وإن يكن؟ لقد قرأت أيضاً كتاب محمود درويش، وتحدثت عن قصيدته: "لماذا تركت الحصان وحيداً"، وكم حسدتُ وصفه ارتباطهم بالأرض.

وكان محمود درويش خاطب دوافع قرائه الإسرائيليين قبل نشر الكتاب، وأعاد على مسامعهم في مناسبات متعددة قوله التالي: "أود أن يقرأ الإسرائيليون شعري، لا بوصفي ممثلاً للعدو، ولا بوصفي صانعاً للسلام." ومن هذا المنطلق، منحنا درويش حقوقاً كاملة في نشر أعماله، رافضاً أي شكل من أشكال المكافأة: "بطلبكم الإذن تكونون قد تجاوزتم أسلافكم. وحين تبدأون بجني المال من هذا المشروع، عودوا ومعكم عرض المكافأة." لكني رفضت ما كان يقوله لي، وبصلف صاحب المشروع الثقافي المبتدئ وغطرسته، كنت على يقين من أن دار "الأندلس" ستكون مختلفة، وأنه ما إن يغدو للترجمات العربية ـ العبرية سوقها، حتى يعقب الطلبُ العرضَ من دون شك. كم كنت مخطئة.

وعلى غرار شركائي في الدار، أنا أيضاً أؤيد موقف المثقفين الفلسطينيين والعرب الذين يناهضون "التطبيع"، أي إقامة علاقات جوار طبيعية مع إسرائيل ـ اقتصادياً وسياسياً وثقافياً ـ قبل زوال الاحتلال، لأن العلاقات مع إسرائيل لا يمكن أن تُطبَّع إلاّ على أساس تسوية تاريخية عادلة، ومتكافئة، وقابلة للحياة، وليس إنهاء الاحتلال سوى الشرط الأول. وكنت أدرك، منذ أسستُ دار "الأندلس"، مخاطر خلق شعور زائف بـ "إقامة السلام" و"الحوار" من خلال "التطبيع". وكثيراً ما اعترضت علانية على التطبيع، غير أن الأهم من ذلك أنني كنت، ولا أزال، أبحث عن سبل تجعل ترجمة الأدب العربي إلى العبرية وسيلة لمقاومة الاحتلال. ففي واقعنا العنصري، حيث تعلو جدران "الفصل" يوماً بعد يوم، يغدو حضور اللغة والثقافة العربيتين في الحياة العبرية اليومية شكلاً من أشكال مقاومة العسف والاحتلال.

أردنا أن ننشر كتباً انطلاقاً من "اعتبارات" محض ثقافية (إن كان ثمة اعتبارات كهذه)، ولم نكن نبحث عن كتب من شأنها أن "تجعل اليهود يحبون العرب أكثر" (كما يقول أحد محرري الترجمة العربية ـ العبرية الأدبيين)، ولا عن كتب من شأنها أن تعزز تصورات اليهود المسبقة عن "العرب". أردنا أن نترجم من العربية إلى العبرية، تماماً مثلما يمكن للمرء أن يترجم من الفرنسية إلى العبرية، فيحصل على حق القيام بذلك، ومن دون أبوية واستشراق، ما وسعنا ذلك.

غير أن الكتّاب المصريين الذين فاتحناهم في الأمر لم يكونوا يشاطروننا الرأي، وإنما فضلوا أن يتجاهلوا إعلاناتنا، ورفضوا ترجمة أعمالهم على أساس "مناهضة التطبيع". وهؤلاء الكتّاب ينتمون إلى وسط يتجنب أي اتصال بإسرائيل، حتى لو كان الثمن رفضهم زيارة الأراضي الفلسطينية المحتلة، إذ يرون أن أي اتصال بإسرائيل، بما في ذلك التقدم بطلب الحصول على تأشيرة لعبور حدودها، بغية دخول الأراضي الفلسطينية المحتلة، إنما يشكل نوعاً من "التطبيع". بعد ذلك، تعرضت "الأندلس" لهجمة شرسة من إحدى المجلات الأسبوعية الثقافية المصرية*. وقد أعقب تلك الهجمة عشرات من المقالات التي تدعم أو تعارض مشروعنا في مختلف أنحاء العالم العربي.

وكان لنا شرف أن تلقى "الأندلس" ذلك العدد الكبير من المؤيدين في الأوساط الأدبية والفكرية العربية، فقد أطلق كل من محمود درويش والياس خوري وإدوارد سعيد ومحمد برادة ومحمد شكري وآخرين كثر "هجوماً مضاداً" أشاد بـ "الأندلس" بالقول والعمل، ومنحنا عدد منهم حقوق نشر مجانية، تعبيراً عن المشاركة والتضامن. ولا عجب في أن هذا النقاش الذي ترددت أصداؤه في أرجاء

(*) الإشارة هنا هي إلى مجلة «أخبار الأدب» التي نشرت تحقيقاً عنوانه «إسرائيل تقتل بيد وتترجم بالأُخرى». (المترجم)

العالم العربي، لم يكن له أي صدى في إسرائيل، فاليهود الإسرائيليون، في معظمهم، كما يبدو، غير مبالين بما يكتبه العرب، وبما يفكرون فيه أيضاً. وفي حين يمكن أن يعثر القارئ العربي، في أي يوم، على نحو ٢٠ مقالة مترجمة من الصحافة العبرية، فإن القارئ العبري يصعب عليه أن يقع على مادة مترجمة واحدة كل ٢٠ يوماً.

أحسب أن محمود درويش كان محقاً، فمعظم الإسرائيليين لا يبالي بالأدب العربي، وقلة مختارة هي التي تريد أن "تعرف العدو" أو "تقيم سلاماً" معه. وأغلبية الكتب التي نشرناها لا علاقة لها بالصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني: "الخبز الحافي" للمغربي محمد شكري؛ "مثل صيف لن يتكرر" للمغربي محمد برادة؛ "عرس الزين" و"بندر شاه" للسوداني الطيب صالح؛ "البئر الأولى" للفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا؛ "حكاية زهرة" و"أكنس الشمس عن السطوح" للبنانية حنان الشيخ؛ "حجر الضحك" و"حارث المياه" للبنانية هدى بركات. وقد نال كل واحد من هذه الكتب مراجعات أطنبت في المديح، لكن لم يحقق أي عائدات تُذكَر (تراوح معدل المبيعات لكل منها بين ٢٠٠ و٥٠٠ نسخة).

غير أن الروايتين اللتين نشرناهما للبناني الياس خوري تشكلان استثناء لافتاً. فرواية "باب الشمس"، التي نشرت باللغة العبرية في سنة ٢٠٠٢، تتناول النكبة، وكثيراً ما أشارت الصحافة الإسرائيلية إلى هذه الرواية على مدى أعوام، غير أنها لم تُثر حين نُشرت باللغة العبرية إلاّ عدداً قليلاً نسبياً من المراجعات. ومع ذلك، فقد بعنا منها ما يزيد على ٥٠٠٠ نسخة (مُنِح ربعها لمكتبات عامة إسرائيلية حيث تجري استعارتها كثيراً). وهذا الكتاب هو الأكثر مبيعاً لدى "الأندلس"، والعنوان الأكثر شعبية بين كل ما سبق أن تُرجم من العربية إلى العبرية.

وفي سنة ٢٠٠٥، نشرنا رائعة خوري الأدبية "يالو"، التي لا علاقة لها بالسردية الفلسطينية في حد ذاتها، لكنها مثل "باب الشمس"، تُعنى بتقاطع التاريخ والذاكرة لدى سجين لبناني يخضع للتحقيق والتعذيب. ومن المعروف أن أعمال مؤلف ما، بأي لغة من اللغات، لا تحقق جميعاً القدر ذاته من المبيعات. وفي حالة "يالو"، كنا نظن أنها ستبزّ سابقتها، وخصوصاً بعد أن أمطرتها المكتبات بالاهتمام، شأنها في ذلك شأن الصحافة (١٦ مراجعة مقرّظة في الشهر الأول).

لكن "يالو"، للأسف، لم تبع إلاّ ١٥٠٠ نسخة. ومع أن ذلك كان أكثر بكثير من المعتاد (٥٠٠ نسخة فأدنى)، إلاّ إنه كان مخيباً للأمل، لأنه إذا كان هذا ما يمكن للأكثر مبيعاً أن يحققه، فمعنى ذلك أننا خسرنا المعركة بشأن قلوب قراء العبرية وعقولهم، وأن حلمنا بدار نشر مستقلة ومستدامة ومكتفية بذاتها بلغ نهايته، وأن نواة اللغة العربية التي حاولنا أن نسرّبها عبر ما يحيط بنا من جدران يشتد خناقها باطراد، لم تكن كافية. كيف يمكننا أن "نغذّي ونخصب" الثقافات ونحن لا نكاد نقوى على تغذية وتخصيب أنفسنا؟ وفي غياب الموارد، كان لا بد من أن نتوقف عن طلب عناوين جديدة، ونركز على إصدار ما كان في قيد الطبع، وعلى بيع المخزون لدينا.

غير أنه في الوقت الذي اضطررنا إلى تجميد نشاطنا، برز بصيص أمل عابر. فقد طلبت الكاتبة الكندية صاحبة الجوائز نعومي كلاين، والتي تناهض، مثلنا، التطبيع مع الاحتلال، نشر كتابها الأخير الرائج "عقيدة الصدمة" بالعبرية في "الأندلس"، ذلك بأن كلاين، إلى جانب نقدها الحاد دولة إسرائيل، تهتم كثيراً بأمر الحوار مع الإسرائيليين. ولذلك، فإنها في الوقت الذي كانت تدعم حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات، مثلي، كانت فكرتها "عدم مقاطعة الإسرائيليين، وإنما مقاطعة التطبيع مع إسرائيل." وكانت تحسب أن "الأندلس" هي العنوان الأمثل لهذا النوع من المقاومة، بينما اعتقدنا نحن أن الخلاص جاء. فحين تبرعت كلاين، ذلك التبرع السخي، بجميع عائدات ترجماتها المقبلة إلى العبرية، بات لدينا كل أسباب الاعتقاد أن "الأندلس" ستتمكن، بعد نشر "عقيدة الصدمة" بالعبرية، من نشر مزيد من الكتب؛ وهو هدفنا الأساسي الدائم. غير أن زيادة

عدد القراء التي كنا نتطلع إليها بأمل، لم تتحقق قط، ويبدو أن الإسرائيليين كفّوا عن الاهتمام بمناهضة العولمة إذا ما كانت مرتبطة بمناهضة التطبيع وتدعو إلى مساءلة الاحتلال، وإذا ما تحول مخلّصنا الشمالي إلى صديق سياسي حقيقي وكفّ عن كونه بابا نويل.

جرى التخطيط لإصدار كتاب كلاين والقيام بجولتها المخصصة له في حزيران/يونيو ٢٠٠٩، ولم نكن نعلم أن مجزرة وحشية ستُرتكب قبل ذلك ببضعة أشهر في قطاع غزة المحاصر والمغلوب على أمره. لم نكن نتصور أن ٩٥٪ من السكان الإسرائيليين ـ اليهود سيدعمون القتل الوحشي لـ ٤٠٠ طفل، ولم نكن نتخيل، حتى في أشد أحلامنا جموحاً، تلك الظاهرة التي تبرز أول مرة (وثمة دائماً أول مرة) وتتمثل في قيام عائلات إسرائيلية بنزهة السبت إلى التلال المطلة على غزة كي يهتفوا لقصف مليون ونصف مليون من المدنيين المعتقلين في أكبر سجن مفتوح في العالم بأسره. ولم نكن ندرك أن الجدران التي حاولنا إطاحتها على مدى أعوام باتت محكمة الإغلاق بفضل الرقابة الذاتية.

لقد خضع كتاب كلاين وزيارتها لرقابة محكمة، ووقعت دعواتنا إلى الحوار على آذان صماء، كما أن أتباعها العبريين، في معظمهم، رفضوا (منذ كتابها الأفضل مبيعاً: "بلا علامات تجارية") سماع أي نقد سياسي ربما يشعرهم بأنهم متورطون. ولذلك، فإن نشر كتاب نعومي كلاين لم يقتصر على عدم تمكننا من ترجمة مزيد من الكتب العربية إلى العبرية، وإنما تعدى ذلك إلى تبيان أن جدران الرقابة التي نواجهها أشد منعة من أي وقت مضى، حتى يكاد خرقها يكون مهمة مستحيلة.

ومع ذلك، وبعد كل ما قلته، فإن "الأندلس" تفعل كل ما في وسعها لتثبت أني على خطأ، وآمل بأنها ستثبت ذلك يوماً ما. وأنا لا أكفّ عن إعادة تفحص الطرائق التي نعمل بها، والخيارات التي نتخذها، والأدوات التي نستخدمها للحصول على كتبنا. لقد تركت "الأندلس" كمشروع ثقافي بصمتها الواضحة: مراجعات مقرّظة؛ معجبين متشددين؛ قراء عابرين ممتنّين. أمّا كمشروع اقتصادي فكان فشلها ذريعاً: عرضٌ بلا طلب. ولعلنا لسنا من يجدر به ألاّ يكفّ عن إعادة التفحص، وإنما دور النشر الأُخرى، فقد نشرنا خلال سبعة أعوام ٢٤ عنواناً، منها ١٨ ترجمة من الأدب العربي إلى العبرية، كما أننا زدنا عدد مثل هذه الكتب إلى أكثر من ٥٠٪، مع أن العناوين العربية التي نشرتها الدور العبرية الأُخرى في الفترة ذاتها لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

وهنا يجب أن نتذكر ضيوفنا الأجانب. فكم يبدو غريباً، على الرغم من أن أغلبية شعب البلد تتكلم العربية، أو هي من أصل يتكلم العربية، أن تتوارى اللغة العربية بعيداً، ومعها إمكان "الأندلس" كموقع لثقافة عربية ـ يهودية، وإمكان "الأندلس" للنشر. لقد سبق أن تحدث موسى بن ميمون عن "مكاننا في الأندلس"، لكن عدد اليهود الإسرائيليين الذين يعرفون أن ابن ميمون كتب أرفع كتبه بالعربية، يتضاءل يوماً بعد يوم.

يبدو في بعض الأحيان كأن الفجوة الثقافية والجدران الذهنية أعمق وأطول من أي حاجز مادي قائم، لكن هذه الجدران لا تفصل "بيننا وبينهم" فحسب (كما قال رئيس الحكومة السابق إيهود بَراك: "نحن هنا وهم هناك")، بل إنها تنتصب فينا نحن أنفسنا، بين ماضينا وحاضرنا، بين الخيال والواقع، بيننا وبين المكان الذي نعيش فيه. ■